

شرح الأصول الثلاثة-485-1.0

شَرْحُ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ

عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَازٍ

الكتاب يوضح أساسيات التوحيد في الإسلام، حيث يشرح معرفة الله، دين الإسلام، ونبي الإسلام محمد ﷺ، كما ويشمل الكتاب الدلائل الشرعية والمفاهيم الأساسية حول عبادة الله وطاعته، ويحث على فهم هذه الأصول لتأسيس عقيدة صحيحة.

شَرْحُ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ

لِلإمام محمد التميمي رحمه الله

شرح سماحة الشيخ العلامة

عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَازٍ

رحمه الله

ترجمة موجزة للشارح سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو سماحة الشيخ الإمام المجتهد عبد العزيز بن عبد الله بن

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن باز.

وكنيته: أبو عبد الله أكبر أولاده، لقبه المشهور به: ابن باز

رحمه الله.

مولده ونشأته:

ولد في الرياض في اليوم (12) من ذي الحجة سنة

(1330هـ). ونشأ بها في حجر والدته، فقد توفي والده سنة

(1333هـ) وعمره دون الثالثة، فأحسنّت أمه تربيته وتنشئته

رحمها الله، وقد توفيت سنة (1356هـ).

حياته العلميّة والعملية:

حياته العلميّة:

تلقى تعليمه على يد كوكبة من علماء الدَّعوة السَّلفيَّة من أبرزهم:

الشَّيخ: محمَّد بن إبراهيم بن عبد اللَّطيف آل الشَّيخ رحمه الله مفتي الدِّيار السُّعوديَّة، فقد أخذ عنه جميع علوم الشريعة. أمَّا حياته العملية: فقد تولى عدة أعمال منها:

- القضاء في منطقة الخرج بالدَّلم من (1357هـ-1371هـ).

- ثُمَّ التَّعليم في منطقة الرياض والمدينة من (1371هـ-1395هـ).

- ثُمَّ تمَّ تعيينه رئيساً لإدارات البحوث العلميَّة والإفتاء، والدَّعوة والإرشاد برتبة وزير من (1395/10/14هـ حتى 1414/1/14هـ).

- وقد عُيِّن مفتياً عامّاً للمملكة، ورئيساً لهيئة كبار العلماء، واللَّجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء في (1414/1/20هـ) وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي رحمه الله رحمة واسعة في (1420/1/27هـ). مؤلفاته:

له العديد من المؤلفات أكثرها قد جمع ضمن كتابه المشهور «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» والبالغ ثلاثون مجلداً، وحوِّل برنامجه الإذاعي «نور على الدَّرب» إلى كتاب «فتاوى نور على الدَّرب» وقد صدر في (34) مجلداً، وله غيرها من التَّصانيف والشروح والفتاوى.

كما أصدرت مؤسسة عبدالعزيز ابن باز الخيريَّة بعض تعليقات وشروح سماحته على بعض كتب أهل العلم منها كُتب

الإمام المجدد الشيخ: محمّد التميمي رحمه الله ككتاب «كشف الشُّبُهات، والأصول الثلاثة، والقواعد الأربع، وفضل الإسلام»، و«كتاب الفتوى الحمويّة، والعقيدة الواسطية» كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكتاب «وظائف رمضان» للشيخ عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم رحمه الله، وكتاب «التبصير في معالم الدّين» لابن جرير رحمه الله وغيرها.
وفاته:

توفي بالطائف قبيل فجر يوم الخميس 27 من شهر محرم الحرام سنة 1420 هـ، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الجمعة بالمسجد الحرام، ودفن بمقبرة العدل بمكة المكرمة رحمه الله.¹

تعريف الشّارح بثلاثة الأصول ومؤلفها

هذه رسالة مهمّة في العقيدة ألّفها الشّيخ أبو عبد الله محمّد بن عبد الوهّاب بن سليمان بن عليّ التّميميّ الحنبليّ الإمام المشهور المجدّد لما أندرَسَ من معالم الإسلام في النّصف الثّاني من القرن الثّاني عشر رحمه الله وأكرم مثواه.

1 ينظر ترجمته في: «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لسماعته (9/1 - 12) من جمع وترتيب د. محمّد بن سعد الشّويعر، و«الإنجاز في ترجمة الإمام عبد العزيز بن باز» للشيخ عبد الرحمن بن يوسف الرحمة (ص27، 28، 29، 34، 45، 377) وكتاب «جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز» رواية الشّيخ محمّد الموسى، إعداد: د. محمّد بن إبراهيم الحمد (33) و«الإبريزية في التسعين البازية»، د. حمد بن إبراهيم الشّتوي (18، 20، 21، 30، 189) و«ترجمة سماحة الشّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز»، من إعداد واعتناء: الشّيخ عبد العزيز بن إبراهيم ابن قاسم (13، 23، 26، 138) وغيرها.

وقد كان رحمه الله يُلقِّنُ الطَّلَبَةَ والعَامَّةَ هذه الأصول؛
ليدرسوها ويحفظوها، ولتستقرَّ في قلوبهم؛ لكونها قاعدة في
العقيدة.

وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة وألف من الهجرة، وقد
كانت وفاته سنة ستٍّ ومائتين وألفٍ من الهجرة، فقد عُمِّرَ إحدى
وتسعين سنةً، وكان عُمَرًا مَلِيًّا بالخير والدَّعوة إلى الله، والتَّعليم
والإرشاد، والصَّبْر على ذلك.¹

وقد أنقذ الله به العباد والبلاد في زمانه في هذه الجزيرة،
وانتشرت دعوته بعد ذلك في غيرها من الشَّام، ومصر،
والعراق، والهند وغيرها، بسبب الدُّعاة الَّذِينَ حملوا عنه العلم،
وانتقلوا إلى تلك البلدان والدُّول، وبسبب الكتب الَّتِي انتشرت
منه رحمه الله ومن أتباعه وأنصاره والدُّعاة التَّابعين له، في
الدَّعوة إلى الله.

مقدِّمة المؤلف

قال الشيخ محمد التميمي:
«اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:
الأولى: العِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ
الإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ.
الثَّانِيَّةُ: العَمَلُ بِهِ.

¹ وقد حاضر، وكتب الشَّارح رحمه الله عن الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ سِيرَتَهُ ودَعْوَتِهِ
الإِصْلَاحِيَّةَ، ورَدَّ على شِبْهِ بَعْضِ الْمَنَاقِبِ لَهُ. يَنْظُرُ: «مَجْمُوعُ فِتَاوَى وَمَقَالَاتٍ
مُنْتَوَعَةٍ» (1/354-384) و«فِتَاوَى نُورِ عَلَى الدَّرْبِ» مِنْ جَمْعِ الطَّيَارِ
وَالْمَوْسَى (1/19-25، س6، وس7) و«فِتَاوَى نُورِ عَلَى الدَّرْبِ» بِعُنَايَةِ
الشُّوَيْعِرِ (3/138-154).

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِيهِ، وَالذَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسْمِ
اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرَ 1 إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ 2 إِلَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾
[العصر: 1-3]

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: 1 «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى
خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةُ لَكَفَتْهُمْ».²

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ
وَالْعَمَلِ، وَالذَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ
لِدُنْيِكَ...﴾ [مَحَمَّد: 19]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.³
قال الشيخ عبد العزيز بن باز:

هذه المسائل: يجب أن يتعلّمها المؤمن والمؤمنة الصغير
والكبير:

الأولى: العلم: فعلى الإنسان: أن يتعلّم ويتبصّر حتّى يكون
على بينة، ويعرف دين الله الذي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهِ، وهذا العلم هو:
معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة،
أَوَّلُ شَيْءٍ: أن يتبصّر العبد: مَنْ هُوَ رَبُّهُ؟

فيعرف أن رَبَّهُ الْخَالِقُ الَّذِي خَلَقَهُ وَرَزَقَهُ، وَأَسَدَى إِلَيْهِ النَّعْمَ،
وَخَلَقَ مَنْ قَبْلَهُ، وَيَخْلُقُ مَنْ بَعْدَهُ، وَأَنَّهُ الْإِلَهِ الْحَقُّ الْمَعْبُودُ، الَّذِي
لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ أَحَدٌ، لَا مَلِكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ، وَلَا

1 ستأتي ترجمته، وترجمة الإمام البخاري في كلام الشَّارِح عند شرح كلامهما
رحمهما الله تعالى في (17 و18).

2 تفسير الشافعي (3/1461).

3 كتاب العلم، وهو الباب العاشر فيه (ص 38) طبعة بيت الأفكار الدولية.

جَنٍّ، وَلَا إِنْسٍ، وَلَا صَنْمٍ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ؛ بَلِ الْعِبَادَةُ حَقٌّ لِلَّهِ وَحده، فهو المعبود بحقٍ سبحانه وتعالى.
وهو المستحقُّ بأن يُعبدَ، وهو ربُّ العالمينَ، وهو ربُّكَ
وخالقُك وإلهُك الحقُّ سبحانه وتعالى، فهذا هو الأصل الأول:
أن تعرف ربَّكَ.

الأصل الثاني: أن تعرف نبيَّكَ، وهو: محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب الهاشمي القرشي المكي، ثم المدني عليه الصلاة والسلام، فتعرف أنه نبيُّكَ، وأنَّ الله أرسله إليك بدين الحقِّ يُعلِّمك ويُرشدك، فتؤمن بأنه رسولُ الله حقًّا، وأنَّ الله أرسله للعالمين جميعًا من الجنِّ والإنس، وأنَّ الواجب اتِّباعُهُ والسيرُ على منهجه.

الأصل الثالث: أن تعرف دينَكَ بالأدلة، قال الله وقال الرُّسُول، لا بالرأي، ولا بقول فلان؛ بل بالأدلة من الآيات والأحاديث، وذلك هو دينُ الإسلام الَّذي أنت مأمور بالدخول فيه، والالتزام به.

وهو عبادةُ الله الَّذي قال فيها سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56﴾ [الذَّارِيَات: 56] هذه العبادة: هي الإسلام، وهي طاعةُ الله ورسوله، والقيامُ بأمر الله، وتركُ محارمه.

هذه هي العبادة الَّتِي خُلِقَ النَّاسُ لأجلها، وأمرهم الله بها في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾ [البقرة: 21] يعني: اعبُدوه بطاعةِ أوامره، واجتنابِ نواهيه، وإسلام الوجهِ لَهُ، وتخصيصه بالعبادة سبحانه وتعالى، - وسيأتي بيان هذه الأصول الثلاثة -.

الثانية: العملُ به: أي: أنْ تعمل بهذا الدِّين من صلاة، وصوم، وجهاد، وحجٍّ، وإيمان وتقوى؛ لِأَنَّكَ مخلوقٌ لعبادةِ اللَّهِ، فَعَلَيْكَ أنْ تعلم - دينُ اللَّهِ - وتعملَ به، فَتَعْبُدَ اللَّهَ وحده، وتقيم الصَّلَاةَ، وتؤديَ الزَّكَاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتحجَّ البيتَ، وتؤمنَ باللهِ وملائكتهِ، وكُتُبهِ، ورسولِهِ، وبالْيَوْمِ الآخِرِ، وبالْقَدَرِ خيره وشرِّه، وتأمَرَ بالمعروفِ وتنهى عن المنكرِ، وتبِرَّ والديكَ، وتصلَ الأرحامَ، إلى غير ذلك، فتعملَ بما أمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، وتنتهي عمَّا نهاكَ اللَّهُ عنه وتتركِ المعاصيَ الَّتِي أنت نُهيَت عنها، وتفعلِ الواجباتِ الَّتِي أُمِرْتَ بِهَا.

الثالثة: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ: أي: أنْ تدعو إلى هذا الدِّين، فتنصحَ النَّاسَ بأنْ يستقيموا عليه وثرشدهم، وتأمُرهم بالمعروفِ، وتنهَاهم عَنِ المنكرِ، هذه هي الدَّعْوَةُ إلى دينِ الإسلامِ، فعلى كُلِّ مسلم أنْ يدعو إلى اللَّهِ حسب طاقته وعلمه، فَكُلُّ واحدٍ - رجلٍ أو امرأةٍ - عليه قِسْطٌ من هذا الواجبِ، من التَّبْلِغِ والدَّعْوَةِ والإرشادِ والنَّصِيحَةِ.

وأنْ يدعو إلى توحيدِ اللَّهِ، والصَّلَاةِ والمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، والزَّكَاةِ وأدائها، وصَوْمِ رمضانَ، وحجِّ البيتِ مع الاستطاعة، وبرِّ الوالدينِ، وصلةِ الأرحامِ، وتركِ المعاصي كُلِّهَا.

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِيهِ: أي: يَصْبِرُ عَلَى الْأَذَى فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَقَدْ يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ أَذَى، قَدْ يَتَعَبُ مِنَ الْمَدْعُوِّ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ كَأَهْلِهِ، فَالْوَجِبُ الصَّبْرُ وَاحْتِسَابُ الْأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ.

فَالْمُؤْمِنُ يَصْبِرُ عَلَى إِيْمَانِهِ بِاللَّهِ، وَعَلَى الْعَمَلِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَتَرَكَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَيَصْبِرُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّعْلِيمِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

فلا بُدَّ من الصَّبْرِ في هذه الأمور كُلِّها، فالِدِّين كُلُّهُ يحتاجُ إلى صبرٍ، صبرٍ على دعوة الله وحده، وصبرٍ على أن تصلي، وتزكي، وتصوم، وتحج، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وصبرٍ عَنِ المَحَارِمِ والسَّيِّئَاتِ، فتَحَذَّرْ مِنْ قُرْبِهَا، فالإنسان إذا لم يصبر وقع فيما حرَّم الله عليه، أو ترك ما أوجب الله عليه؛ ولهذا قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ...﴾ [الأحقاف: 35]، وقال سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾ [الطور: 48]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾ [النحل: 127]، وقال تعالى: ﴿...وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46] يعني: اصبروا على طاعة الله، وترك معصيته، واحذروا مخالفة أمره وارتاب نهيه.

والدليل على هذه المسائل الأربع، قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ 1 إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ 2 إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ 3﴾ [العصر: 1-3] ففي هذه السُّورَةِ العَظِيمَةِ، الحُجَّةُ؛ لهذه الأمور، وهذا هو الدِّين كُلُّهُ، فالِدِّين كُلُّهُ إيمانٌ وعملٌ ودعوةٌ وصبرٌ.

إيمانٌ بالحقِّ، وعملٌ به، ودعوةٌ إليه، وصبرٌ على الأذى فيه، والنَّاسُ كُلُّهُمْ في خسارةٍ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ 3﴾ [العصر: 3] أي: الَّذِينَ استثناهم الله، فجميعُ بني آدم في خسرانٍ، وعلى طريق الهلاك إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ.

وهؤلاء هُمُ الرَّابِحُونَ، وَهُمُ السُّعْدَاءُ، وَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَى هَذَا بقوله: ﴿وَالْعَصْرُ 1﴾ وهو الصَّادِقُ سبحانه وتعالى، وَإِنْ لَمْ يَقْسَمْ؛ وَلَكِنْ أَقْسَمَ لِتَأْكِيدِ الْمَقَامِ.

والله سبحانه وتعالى يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، فَلَا أَحَدٌ يَتَحَجَّرُ عَلَيْهِ، فَأَقْسَمَ بِـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ 1﴾ [البُرُوج: 1] وَأَقْسَمَ بِـ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ 1﴾ [الطَّارِق: 1] وَبـ ﴿وَالضُّحَى 1﴾ [الضُّحَى: 1] وَبـ ﴿وَاللَّيْلِ 1﴾ [اللَّيْلِ: 1] وَبـ ﴿وَالنَّازِعَاتِ 1﴾ [النَّازِعَاتِ: 1] وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَعَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، وَأَقْسَمَ بِهَا لِبَيَانِ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ. وَأَمَّا الْمَخْلُوقُ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْسَمَ إِلَّا بِرَبِّهِ، فَلَا يُقْسَمُ وَلَا يَحْلِفُ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَحْلِفَ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَلَا بِالْأَصْنَامِ، وَلَا بِالصَّالِحِينَ، وَلَا بِالْأَمَانَةِ، وَلَا بِالْكَعْبَةِ، وَلَا بِغَيْرِهَا.

هذا هو الواجب على المسلم؛ لقول النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِشَيْءٍ دُونَ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.² وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ».³

1 من الحجر، وهو: المنع، حجره، بمعنى: منعه من الشيء، كما في «القاموس المحيط» للفيروز أبادي، مادة: [حجر] باب الرَاء، فصل الحاء (ص348).

2 أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (47/1، 34/2، 4904) عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

3 أَخْرَجَهُ عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْبُخَارِيُّ، بِرَقْم (2679) وَمُسْلِمٌ، بِرَقْم (1646).

فالواجبُ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ الحذرُ من الحلفِ بغيرِ الله، وأن تكون أيمانهم كُلُّها باللهِ وحدهُ سبحانه وتعالى. يقول الشافعي رحمه الله وهو الإمام المشهورُ، أحدُ العلماءِ الكبارِ، وأحدُ الأئمةِ الأربعةِ، وهو: محمدُ بن إدريس الشافعي المطلبِي، المولودُ سنةَ خمسَين ومئةَ، وتوفيَّ سنةَ أربعٍ ومئتين هجرية¹.

يقول رحمه الله: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةُ لَكَفَتْهُمْ»، وفي رواية: «لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لَكَفَتْهُمْ» أي: لو نظروا فيها وتأملوها لكانت كافيةً في إلزامهم بالحقِّ، وقيامهم بما أوجبَ الله عليهم، وترك ما حرَّمه عليهم؛ لأنَّ الله بيَّن أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ وتواصوا بالحقِّ، وتواصوا بالصَّبْرِ هُمُ الرَّابِحُونَ، وَمَنْ سِوَاهُمْ خَاسِرُونَ. وهذه حُجَّةٌ قائمةٌ على وجوبِ التَّوَّاصِي، والتَّنَاصِحِ، والإيمانِ، والصَّبْرِ، والصِّدْقِ، وأَنَّهُ لَا طَرِيقَ لِلسَّعَادَةِ وَالرِّيحِ إِلَّا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الأربعةِ: إيمان صادق باللهِ ورسوله، وعملٍ صالحٍ، وتواصٍ بالحقِّ، وتواصٍ بالصَّبْرِ.

وقال البخاري رحمه الله: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، من بخارى في الشَّرقِ الأقصى، ولد سنة أربع وتسعين ومئة في آخر القرن الثاني، ومات سنة ست وخمسين ومئتين من الهجرة في وسط القرن الثالث، كان عُمرُهُ

¹ ينظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (8/379-429 ترجمة رقم 1539).

- عند وفاته - اثنتين وستين سنة، وهو صاحب "الصحيح" وله مؤلفات أخرى عظيمة نافعة رحمه الله.¹

يقول: في «صحيحه» باب: العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله سبحانه: **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...﴾** [محمّد: 19].

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، فالإنسان عليه أن يتعلم أولاً، ثم يعمل، فيتعلم دينه ويعمل على بصيرة، والله أعلم.

توطئة للأصل الأول

قال المؤلف:

«اعلم - رحمك الله - أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه الثلاث مسائل، والعمل بهنّ:

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً؛ بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، والدليل قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَرَعَوْنُ الْفَاسِقُونَ ۖ فَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبَيْلًا﴾** [المزمل: 15-16].

الثانية: أن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والدليل قوله تعالى: **﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾** [الجن: 18].

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحّد الله، لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسله، ولو كان أقرب قريب، والدليل قوله تعالى:

¹ ينظر: للمزيد من ترجمته وسيرته «سير أعلام النبلاء» للذهبي (273/10) ترجمة رقم (2136).

² في كتاب العلم (ص 38) وهو الباب العاشر في الكتاب بعد رقم 67 وقبل 68.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22].

قال الشارح:

هذه المسائل الثلاث من أهم المسائل التي تتعلق بالتوحيد لله وحقوقه سبحانه وتعالى.

المسألة الأولى: الله خلق الخلق ليعبدوه، فلم يخلقهم هملاً، ولا سدى، ولا عبثاً؛ لكنه خلقهم لأمر عظيم، ولحكمة عظيمة، فيها سعادتهم، ونجاتهم، وهي: أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [56] [الذاريات: 56].

وهذه العبادة أمرهم بها في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾ [البقرة: 21]، وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً...﴾ [النساء: 36]، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: 23]، وفي قوله: ﴿... فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 2]، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ [البينة: 5].

أمرهم في آيات كثيرة بالعبادة، وهي توحيده جلّ وعلا، وتخصيصه بالعبادة: من دعاء، وخوف، ورجاء، وتوكل، ورغبة، ورهبة، وصلاة، وصوم، وغير ذلك.

فهو المستحق للعبادة جلّ وعلا دون كل ما سواه، ويدخل في ذلك فعل الأوامر، وترك النواهي، فإداء الأوامر التي أمرك الله

بها ورسولُهُ، وترك النّواهي الّتي نهّاك الله عنها ورسولُهُ، كلّ هذا داخلٌ في العبادة، وهذا هو الإسلام، وهو الدّين، وهو الإيمان وهو الهدى.

فلا تُصلِّ إلّا لله، ولا تركع إلّا له، ولا تدبج إلّا له، ولا تدع إلّا إياه، ولا تتوكّل إلّا عليه، إلى غير هذا من العبادات. أمّا الاستعانةُ بحاضرٍ قادرٍ فيما يقدّر عليه، فهذا ليس بعبادة، كما قال سبحانه في قصّة موسى ﴿...فَاسْتَعْنُهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ...﴾ [القَصَص: 15] فَإِنَّ مُوسَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُغَيِّثَهُ.

أمّا دُعاء الميّت، ودُعاء الغائب الذي لا يسمّع كلامك، أو دُعاء الصّنم، أو الجنّ، أو الأشجار ونحوها، فهذا شركُ المشركين، وهو الشركُ الأكبرُ الَّذِي قال الله فيه: ﴿...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ [النساء: 48، 116]، وقال تعالى: ﴿...وَلَوْ أَشْرَكُوا أَحْبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ 65﴾ [الزمر: 65]. فالله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هملاً؛ بل أمرنا بتوحيده، وطاعته، وترك معصيته.

وأرسل إلينا رسولا هو: محمّد عليه الصّلاة والسّلام بكلّ ما تقدّم، وأنزل عليه القرآن بذلك؛ لِنَسْتَقِيمَ على ما فيه من الهدى، ونَعْمَلَ بما فيه من الأوامر، ونُنْتَهِيَ عَمَّا فِيهِ مِنَ النّواهي، على يد محمّد رسول الله ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، جاء لِيُعْلِمَ النَّاسَ دِينَهُمْ، فهو خاتم الأنبياء وإمامهم وأفضلهم.

فمن أطاع هذا الرَّسُولَ واستقام على دينه فله الجنة، ومن عصى هذا الرَّسُولَ، وحادَ عن دينه فله النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ...﴾ [المُزَّمِّل: 15] يعني: بأعمالكم - التي شاهدها -: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى عليه السلام ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [16] [المُزَّمِّل: 16] أي: أخذنا فرعونَ أخذاً وبيلاً في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالنار.

المسألة الثانية: إنّما هي تحقيقُ للمسألة الأولى - وهي -: أن تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، الَّذِي خَلَقَكَ، وَأَعْطَاكَ النِّعَمَ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَرْضَىٰ أَنْ يَشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ؛ لَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا غَيْرُهُمَا؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ حَقٌّ لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ [الإِسْرَاءُ: 23]، وكما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَةُ: 5]، لِأَنَّ الْإِشْرَاقَ بِهِ هُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ.

وقد جاء في الآيات الكثيرة، الأمرُ بإخلاص العبادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالنَّهْيُ عَنِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، فَتَجْمَعُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، فَتُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، وَتُؤْمِنُ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ مِنْ دَبْحٍ، وَصَلَاةٍ، وَصَوْمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَاتِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالْهُكْمُ إِلَهُ وَحْدٌ...﴾ [البَقَرَةُ: 163]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿...فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الْحَجَّ: 18].

المسألة الثالثة: وهي من أهمِّ الواجباتِ، أن يعلم كل مسلم ومسلمة أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مَوَالَاةُ الْمُشْرِكِينَ، أَوْ مُحَبَّتُهُمْ، فَكُلُّ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَوَحَّدَ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَلْزَمُهُ أَنْ يُعَادِيَ الْكُفَّارَ،

وَيُبْغِضُهُمْ فِي اللَّهِ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ مَوَالِيَّتُهُمْ وَمَحَبَّتُهُمْ، لقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا...﴾ أَي: لَا تَجِدُ يَا مُحَمَّدٌ قَوْمًا أَهْلَ إِيْمَانٍ صَادِقٍ: ﴿...يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة: 22].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ 51﴾ [المائدة: 51]، وقال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ...﴾ [الممتحنة: 4].

فَلَا بُدَّ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ، وَمَوَدَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَبَّتِهِمْ، هَكَذَا الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ، وَيُؤَادُّهُمْ، وَيَكْرَهُ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَيُبْغِضُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ فِي اللَّهِ، وَإِنْ دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ أَقْرَهُمْ فِي بَلَادِهِ وَأَخَذَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ، كَوَلِيِّ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ «أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ»¹، وَأَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ فِيهَا عَوْنٌ لِلْمُسْلِمِينَ، لَا مَحَبَّةَ لَهُمْ، وَتَوَخَّذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ إِذَا لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا يُقَاتِلُونَ؛ بَلْ يُقْرُونَ مَعَ بُغْضِهِمْ فِي اللَّهِ، وَعَدِمَ مَوَالِيَّتِهِمْ.

فَإِنْ أَبَوْا الْإِسْلَامَ وَالْجِزْيَةَ قُوتِلُوا مَعَ الْقُدْرَةِ، وَهَذَا خَاصٌّ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ، أَمَّا بَقِيَّةُ الْكُفَّارِ، فَلَا تُقَبَّلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ؛ بَلْ يُقَاتَلُونَ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، كَالْوَثْنِيِّينَ وَالشُّيُوعِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفَرَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَتِّلُوا هُمْ حَتَّى لَا

¹ تَوَخَّذَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِقَوْلِهِ: ﴿...وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ...﴾ [التوبة: 29]، وَأَمَّا الْمَجُوسُ فَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُئِلُوا بِهِمْ سُنَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ» أَخْرَجَهُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ، بِرَقْم (3157-3159) وَمُسْلِمٌ، بِرَقْم (1731).

تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ...﴾ [الأنفال: 39]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَأَحْصِرُواهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5]، وقوله سبحانه: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وَمُرَادُهُ سُبْحَانَهُ قِتَالَهُمْ، مع القدرة على ذلك؛ لقوله عز وجل: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ [البقرة: 286]، وقوله سبحانه: ﴿...فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ...﴾ [التغابن: 16]، ولأنَّه ﷺ لم يقاتل المشركين حتَّى قَوِيَ على ذلك، ثُمَّ قَالَ تعالى في آخر الآية: ﴿...أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ...﴾ [المجادلة: 22]، أي: قَوَاهِم بِقُوَّةٍ مِنْهُ.

قال المؤلف:

«اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (56) [الذَّارِيَّات: 56]، وَمَعْنَى يَعْبُدُونَ: يُؤَحِّدُونِي.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ، وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ [النِّسَاء: 36].

قال الشارح:

قال رحمه الله: «اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ» جمع رحمه الله بين التعليم والدُّعَاءِ «أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ» هي: «أَنْ تَعْبُدَ

اللَّهُ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» وهي التي قال الله فيها لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا...﴾ [النحل: 123].

فالحنيفية هي: الملة التي فيها الإخلاص لله وموالاته، وترك الإشراك به سبحانه، والحنيف: هو الذي أقبل على الله، وأعرض عما سواه، وأخلص له العبادة، كإبراهيم وأتباعه، وهكذا الأنبياء وأتباعهم.¹

قال: ﴿وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا﴾ فَأَمَرَهُمُ بِالْتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، وَخَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ، وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ فِي صَلَاتِهِمْ، وَصُومِهِمْ، وَدَعَائِهِمْ، وَخُوفِهِمْ، وَرَجَائِهِمْ، وَذُبْحِهِمْ، وَنَذْرِهِمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، كُلُّهُ لِلَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ [الإسراء: 23]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ 5﴾ [الفاتحة: 5]، وقال سبحانه: ﴿... فَأَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 2]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾ [البقرة: 21]، هذه العبادة هي التي خلق لها الثقلان الإنس والجن، وهي: توحيد الله، وطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56﴾ [الذاريات: 56]، يعني: يوحدوني في العبادة، ويخصوني بها، بفعل الأوامر، وترك النواهي إلى غير ذلك من الآيات.

¹ وسمي إبراهيم حنيفاً عن الباطل إلى الحق؛ لأنه حنف عما كان يعبد أبوه وقومه عن عبادة غير الألوهة إلى عبادة الله وحده... ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير، مادة: [حنف] باب الحاء مع النون (ص 236).

«وَأَعْظُمَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ»
فتقصده بالعبادة دون كل من سواه، فلا تعبد معه صنماً، ولا
نبيّاً، ولا ملكاً، ولا حجرًا، ولا جنياً، ولا غير ذلك.

«وَأَعْظُمَ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ» وقد
قال سبحانه: ﴿...وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:

88]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

وفي «الصَّحِيحِينَ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ:
«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ، قِيلَ ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ
خَسِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قِيلَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»¹
فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ الشِّرْكَ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ وَأَشَدُّهَا وَأُخْطَرُهَا.

وفي الحديث الآخر يقول ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قُلْنَا:
بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ» الحديث، متفق عليه.²

فالتَّوْحِيدُ: هو إفراد الله بالعبادة، والشِّرْكُ: هو دعوة غير الله
مع الله، تدعوه، أو تخافه، أو ترجوه، أو تدبح له، أو تتنذر له، أو
غير ذلك من أنواع العبادة.

هذا هو الشِّرْكُ الأكبر، سواء كان المدعو نبيّاً، أو ملكاً أو
وليّاً أو صالحاً أو جنياً، أو شجرًا، أو حجرًا، أو غير ذلك؛ ولهذا
قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ [النساء: 36]،
﴿وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ [البينة: 5]، فأعظم

¹ أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه البخاري، برقم (4477) ومسلم، برقم (86).

² أخرجه عن أبي بكره رضي الله عنه البخاري، برقم (2654) ومسلم، برقم (87).

ما أمر الله به التَّوْحِيد: وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهى الله عنه هو الشِّرْك بالله عز وجل كما تقدّم؛ ولهذا أكثر سبحانه وتعالى في القرآن من الأمر بالتَّوْحِيد، والنهي عن الشِّرْك.

قال المؤلف:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبِّي جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ، هُوَ مَعْبُودِي، لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 2﴾ [الْفَاتِحَةُ: 2]، وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ».

قال الشارح:

هَذِهِ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي تَجْمَعُ الدِّينَ كُلَّهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ.¹

فَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ فَقَالَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبِّي جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي، لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ، فَهُوَ رَبُّ الْجَمِيعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 2﴾ [الْفَاتِحَةُ: 2].

وَالْعَالَمُونَ: جَمِيعُ الْمَخْلُوقَات، كُلُّهُمْ عَالَمُونَ - الْجِنُّ وَالْإِنْسُ وَالْبَهَائِمُ، وَالْجِبَالُ وَالْأَشْجَارُ - كُلُّهَا عَالَمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ

1 يشير إلى حديث البراء رضي الله عنه أبو داود، برقم (4753). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (4/195-197 برقم 5396): «حديث حسن، رواه محتج بهم في الصحيح».

بِأَمْرِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ 54﴾ [الأعراف: 54]، فَهُوَ رَبُّ الْجَمِيعِ، لَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ، وَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ بِأَنْ يُعْبَدَ؛ وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾ [البقرة: 21]، وَهُوَ مَعْبُودِي، لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 2﴾ [الفاتحة: 2]، يَعْنِي: الثَّنَاءُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالثَّنَاءُ وَالْحَمْدُ مِنَ الْعِبَادَةِ.

وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْجِبَالِ، كُلُّهَا عَوَالِمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ وَأَوْجَدَهُ، وَأَوْجِبُ عَلَيْهِ طَاعَتَهُ، فَعَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ مِنَ الْمَكْلُوفِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُوجِدُوهُ جَلًّا وَعَلَا.

وَهَكَذَا الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَنْ الْمَلَائِكَةِ: ﴿... لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: 6]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْقُوتُ بِهِ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٍ يَعْمَلُونَ 27 يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْصِيَ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ 28﴾ [الأنبياء: 27-28].

بيان الأصل الأول

قال المؤلف:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: 37]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ 54﴾ [الأعراف: 54].

والربُّ: هو المعبود، والدليل قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 21 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ 22﴾ [البقرة: 21-22].

قال ابن كثير رحمه الله: «الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ».²¹

قال الشارح:

يقول رحمه الله: «فَإِذَا قِيلَ لَكَ:» أَيُّهَا الْمُسْلِمُ «بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ»، أي: عرفته بآياته الكثيرة، وبمخلوقاته العظيمة، التي تدل على أَنَّهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ، الْخَالِقُ الْعَلِيمُ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيَنْفَعُ وَيَضُرُّ، بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فهو الْمُسْتَحَقُّ بِأَنْ نَعْبُدَهُ بِطَاعَتِهِ وَدَعَائِهِ وَاسْتِغَاثَتِهِ، وَسَائِرِ أَعْمَالِنَا وَعِبَادَاتِنَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا لِهَذَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56﴾ [الذَّارِيَات: 56].

1 ينظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (1/197).

2 هو أبو الفداء الحافظ عماد الدِّين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي صاحب التفسير والتاريخ المشهور بـ«البداية والنهاية» المتوفى سنة [774هـ]. ينظر: ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (1/29 ترجمه 7)، و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر (1/445 ترجمة رقم 944)، و«الأعلام» للزركلي (1/320).

وهذه العبادة، هي: توحيده وطاعته، وإتباع شريعته، وتعظيم أمره ونهيه قولاً وعملاً.

والدليل على معرفة الله بآياته قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ...﴾ [فُصِّلَتْ: 37]، كُلُّ هَذِهِ تَذَلُّ عَلَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ، يُتَيَّ اللَّيْلَ بِظِلَامِهِ، وَيُذْهَبُ النَّهَارَ بِضِيَائِهِ، ثُمَّ يَجِيءُ بِالنَّهَارِ وَيُذْهَبُ اللَّيْلُ.

وهذه الشمس تطلع على الناس في الدنيا كُلِّهَا، وينتفعون بها، وهذا القمر في الليل كذلك، وغير هذه من الآيات العظيمة، كالأرض وما فيها من جبال، وأنهار، وبحار، وأشجار، وحيوانات، وهذه السموات التي يراها الناس، كُلُّهَا من آياته الدالة على عظمته، وَأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الْخَالِقُ الْعَلِيمُ، الْمُسْتَحَقُّ للعبادة؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ 37﴾ [فُصِّلَتْ: 37]، يعني: لا تعبدوا هذه المخلوقات؛ بل اعبدوا الذي خلقها، وأوجد لها سبحانه وتعالى، فهو الْمُسْتَحَقُّ بأن يذلَّ لَهُ العبدُ، وَيَخْضَعُ، وَيُطِيعُ أوامره، وَيَنْتَهِي عَنِ نَوَاهِيهِ سبحانه وتعالى؛ تَعْظِيمًا وَتَقْدِيرًا لَهُ، وَخَوْفًا مِنْهُ، وَرَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ...﴾ [الأعراف: 54] يعني: إِنَّ رَبَّكُمْ أَيُّهَا الْعِبَادُ مِنَ الْجِنِّ، وَالْإِنْسِ هُوَ اللَّهُ، وَرَبَّكُمْ، يعني: خَالِقَكُمْ، وَهُوَ مَعْبُودُكُمْ الْحَقُّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: ﴿...الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...﴾ [الأعراف: 54]، أي: ثم ارتفع على العرش، وعلا فوقه سبحانه وتعالى.

فَعَلِمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ، فَوْقَ جَمِيعِ
 الْمَخْلُوقَاتِ، وَالْعَرْشُ: سَفْهُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ أَعْلَى
 الْمَخْلُوقَاتِ، وَاللَّهُ فَوْقَهُ جَلَّ وَعَلَا، اسْتَوَى عَلَيْهِ، اسْتَوَاءً يَلِيقُ
 بِجَلَالِهِ، لَا يُشَابِهُ خَلْقَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿...لَيْسَ
 كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4].

وَقَوْلُهُ: ﴿...يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا...﴾ [الأعراف: 54]،
 أَي: يُعْطِي هَذَا بِهِذَا، وَهَذَا بِهِذَا، ﴿...يَطْلُبُهُ حَثِيثًا...﴾ [الأعراف:
 54] أَي: سَرِيعًا، وَكُلُّ وَاحِدٍ يَطْلُبُ الْآخَرَ، إِذَا انْتَهَى هَذَا دَخَلَ
 هَذَا، وَهَكَذَا... حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، ﴿...وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ...﴾
 [الأعراف: 54] أَي: وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، ﴿...وَالنُّجُومُ
 مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ...﴾ [الأعراف: 54]، مُطِيعَاتٍ، مُذَلَّلَاتٍ لِأَمْرِهِ
 سُبْحَانَهُ.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿...أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ...﴾ [الأعراف: 54]
 فَالْخَلْقُ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَالْأَمْرُ لَهُ، هُوَ الْخَلْقُ الَّذِي لَا يُخَالِفُ أَمْرُهُ
 الْكَوْنِيُّ الَّذِي هُوَ نَافِذٌ فِي النَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا
 أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا
 أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كُلَّمَا يَنْبَرِ 50﴾ [القمر: 50] فَأَمْرُ اللَّهِ الْكَوْنِيُّ
 الْقَدَرِيُّ لَا رَادَّ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿...أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

فَ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ...) [المُلْك: 1] وَإِنَّمَا يُقَالُ لِلْمَخْلُوقِ:
 بَارَكَ اللَّهُ فِي فُلَانٍ، أَوْ فُلَانٌ مُبَارَكٌ، أَمَّا تَبَارَكَتْ، فَإِنَّهَا لَا تَصْلُحُ
 إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ.

وَالرَّبُّ: هو المعبود، وَ (الْعَلَمِينَ) المخلوقات كُلُّهَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، هُوَ رَبُّهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَرَبُّ الْجَمِيعِ، وَخَالَقُ الْجَمِيعِ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 21﴾ [البقرة: 21]، خَلَقَ الْجَمِيعَ الَّذِينَ قَبْلَنَا، وَالَّذِينَ بَعْدَنَا، مِنْ آدَمَ، وَمَا قَبْلَهُ، وَمَا بَعْدَهُ، فَهُوَ خَلَقَ الْجَمِيعَ لِيَعْبُدُوهُ وَيَتَّقُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿...لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ بَعْضَ أَفْعَالِهِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾ [البقرة: 22] فَجَعَلَ الْأَرْضَ فِرَاشًا لِلنَّاسِ، وَمِهَادًا لَهُمْ، عَلَيْهَا يَسْكُنُونَ، وَعَلَيْهَا يَبْنُونَ، وَعَلَيْهَا يَنَامُونَ، وَعَلَيْهَا يَمْشُونَ، وَأَرَسَاهَا بِالْجِبَالِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿...وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾ [البقرة: 22]، فَجَعَلَهَا بِنَاءً وَ (سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) [الأنبياء: 32]، وَزَيَّنَهَا بِالنُّجُومِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿...وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ [البقرة: 22] أَي: مِنَ السَّحَابِ: ﴿...فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ...﴾ فَأَنْوَعَ الْأَرْزَاقَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيُحْيِي اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿...فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] أَي: أَشْبَاهًا وَنَظَرَاءَ تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ، لَا صُنَمًا، وَلَا جَنًّا، وَلَا مَلَكًا، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ.

فَالْعِبَادَةُ: حَقُّ اللَّهِ وَحْدَهُ، لَيْسَ لَهُ نَدِيدٌ، وَلَا نَظِيرٌ، وَلَا مِثْلٌ؛ بَلْ هُوَ الْإِلَهَ الْحَقُّ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَّخِذُونَ لَهُ الْأَنْدَادَ، وَالنَّظَائِرَ، وَالْأَمْثَالَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْجَنِّ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَيَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ، فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَبَيَّنَّ أَنَّ

هذه المخلوقات ليس لها حق في العبادة، ولا قدرة لها على شيء إلا بإذن الله سبحانه وتقديره.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «الخالق لهذه الأشياء» من سماء، وأرض، وثمار، وأشجار، ومطر وغير ذلك، «هو المستحق للعبادة» سبحانه وتعالى، وأن يطاع؛ لأنَّه ربُّ الجميع، وخالقهم، كما قال تعالى: (وَالْهُكْمُ إِلَهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ 163) [البقرة: 163].¹

معنى العبادة وأنواعها

قال المؤلف:

«وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، مِثْلُ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ، وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالِاسْتِعَاثَةُ، وَالدَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا كُلُّهَا لِلَّهِ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا 18) [الجن: 18].

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ، فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ 117) [المؤمنون: 117].

وفي الحديث: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»²، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ 60) [غافر: 60].

¹ تقدم عزوه في حاشية (2) صفحة (29).

² أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الترمذي، برقم (3371) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة: وهو ضعيف،

قال الشارح:

العبادة أنواع: فمنها الإسلام بأركانها، فكل ما أمر الله به من أعمال الإسلام عبادة، من صلاة، وصوم، وغير ذلك، وهكذا الإيمان بأعماله الباطنة، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وكذلك الخوف، والمحبة، والرجاء، إلى غير ذلك، فكل ما يتعلق بالقلوب داخل في العبادة، وهكذا الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»¹ وهذا أيضًا من العبادة؛ بل هو أعلى أنواع العبادة وأعظمها.

فالواجب على كلِّ مُكَلَّفٍ إخلاص العبادة لله وحده، فلا يدعو مع الله الأنبياء، ولا الأولياء، ولا الأصنام، ولا الأشجار، ولا الأحجار، ولا النجوم؛ لأنَّ العبادة حقٌّ لله وحده، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا 18﴾ [الجن: 18]، وقال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ 5﴾ [الفاتحة: 5]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ 106﴾ [يونس: 106]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ 117﴾ [المؤمنون: 117]، وقال عز وجل: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا

إِلَّا أَنْ هَذَا الْحَدِيثُ يَشْهَدُ لَهُ حَدِيثُ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» لذا عضد به الشَّيْخُ فِي شَرْحِهِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي (ص 36).

¹ أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري، برقم (50) ومسلم، برقم (9).

يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ 13 إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا
 اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿14﴾
 [فَاطِر: 13-14].

فسمى سبحانه دعاءهم شركاً، فالواجب على جميع المكلفين
 إخلاص العبادة لله وحده، رجاءً، وخوفاً، واستعانةً، واستغاثةً،
 وذبحاً، ونذراً، وخشيةً لله، وصلاةً، وصوماً، إلى غير ذلك، كُلُّهُ
 لله وحده، فمن تقرب لغير الله من وليٍّ، أو نبيٍّ، أو صنمٍ، أو
 شجرٍ، أو حجرٍ بالدعاء، أو بالذبح، أو بالنذر، أو بالصلاة، أو
 بالصوم ونحو ذلك، فهو مشرك كافرٌ أشرك بالله، وعبدَ معه
 سواه، كفعل المشركين الأولين، من عبَاد القبور، والأشجار،
 والأحجار، والأصنام؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿...وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، وقال سبحانه وتعالى:
 ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
 وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ 66﴾ [الزمر: 66]، وقال تعالى: ﴿...إِنَّهُ مَنْ
 يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ...﴾ [المائدة: 72].
 فكل هذه العبادات يجب إخلاصها لله، ومن صرف منها شيئاً
 لغير الله من صنمٍ، أو شجرٍ، أو حجرٍ، أو قبرٍ، فهو مشركٌ بالله؛
 لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ
 عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ 117﴾ [المؤمنون: 117] ولغيرها
 من الآيات السابقة، وهذا دليل على ما تقدّم.

وفي الحديث: «الدُّعَاءُ مَخُ الْعِبَادَةِ»¹ وفي لفظ آخر: «الدُّعَاءُ
 هُو الْعِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ ﷺ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
 يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ 60﴾ [غافر:

[60] ¹ فسمّى الدعاء عبادة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ يعني: عن دعائي.

فالدُّعاء: هو أن يتضرع إلى الله يدعوه، ويسأله النجاة، ويسأله الرزق، كل هذا عبادة، فإذا صرفها للصنم، أو للشجر، أو للحجر، أو لميت، صار مشركاً بالله عز وجل، فيجب الحذر من الشِّرك كله دقيقه وجليله، وأن تكون العبادة لله وحده؛ لكن دعاء الحي الحاضر القادر، والاستعانة به في الشيء المقدور عليه، لا بأس به، ولا يعتبر داخلاً في الشِّرك.

فلو قلت لأخيك الحاضر: يا عبد الله، أعطني على قطع هذه الشجرة، أو على حفر هذه البئر، فلا بأس بذلك، كما قال سبحانه في قصة موسى: ﴿...فَاسْتَعِذْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ...﴾ [القَصص: 15]، استغاثة الإسرائيلي على القبطي؛ لأنَّ موسى قادر على إغاثته، يتكلم ويسمع.

أمَّا إذا اعتمد على المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، حاضراً، أو غائباً، أو ميتاً، واعتقد أنَّه ينفع مَنْ دعاه، أو يضر، لا بالأسباب الحسيَّة، فهذا من الشِّرك بالله، كما قال تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿...هُوَ لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ...﴾ [يونس: 18]، فيظنون أنَّهم يستطيعون بعبادتهم إيَّاهم أن يشفعوا لهم عند الله في حصول مطالبهم، أو أنَّهم يقربونهم إلى الله زلفى، كما قال الله سبحانه عنهم في الآية الأخرى: ﴿...مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

¹ أخرجه من حديث النُّعْمان بن بشير رضي الله عنهما، أبو داود، برقم (1479) والترمذي، برقم (2969) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وابن ماجه، برقم (3828) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (1/667 برقم 1802).

زُلْفَى...﴾ [الرُّمَر: 3]، وهذا من جهلهم وضلالهم بالشفاع والمشفوع إليه.

والله سبحانه له الشفاعة جميعاً، وهو الذي يتصرف في عباده كيف يشاء، فلا يأذن بالشفاعة إلا فيمن يرضى الله عمله، ولا يشفع أحد عنده إلا بعد إذنه، كما قال تعالى: ﴿...وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى...﴾ [الأنبياء: 28]، وقال تعالى: ﴿...مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ [البقرة: 255].

فالشفاعة لا تكون إلا بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع فيه، وهو سبحانه لا يرضى بالشفاعة إلا لأهل التوحيد، كما صح عنه ﷺ أنه قال: لَمَّا سَأَلَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَائِلًا: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» أخرجه البخاري في «صحيحه»¹. ولا تكون الشفاعة إلا لمن رضي الله قوله وعمله من أهل التوحيد والإيمان.

ذكر أدلة بعض أنواع العبادة

قال المؤلف:

«وَدَلِيلُ الْخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿...فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ...﴾ [آل عمران: 175].
وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿...فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

¹ في كتاب العلم، برقم (99).

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿...وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]، ﴿...وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾ [الطلاق: 3].

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا...﴾ [الأنبياء: 90].
وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿...فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَالْأَخْشَى...﴾ [المائدة: 44].

وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ...﴾ [الزمر: 54].

وَدَلِيلُ الْاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [5] [الفاتحة: 5]، في الحديث: «...إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...»¹.

وَدَلِيلُ الْاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [1] [الفلق: 1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [1] [الناس: 1].
وَدَلِيلُ الْاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ...﴾ [الأنفال: 9].

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ 163﴾ [الأنعام: 162-163]، ومن السنة: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِعَیْرِ اللَّهِ»².

وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [7] [الإنسان: 7].

1 أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما، الترمذي، برقم (2516)، وقال: «حسن صحيح».

2 أخرجه من حديث علي رضي الله عنه، مسلم برقم (1978).

قال الشارح:

يقول المؤلف رحمه الله ذاكراً أدلة بعض أنواع العبادة، منها: الخوف، وهو أقسام ثلاثة:

الأوّل: خوف السرّ، وهذا خاص بالله؛ لأنّه القادر على كلّ شيء، وهو الذي يُخاف، ويُخشى، كما قال تعالى: ﴿...فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]، وقال تعالى: ﴿...وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ [التوبة: 18]، وقال تعالى: ﴿...فَلَا تَحْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُوا...﴾ [المائدة: 44].

فالواجب خشية الله وخوفه؛ لأنّه مُصرف القلوب ومقلبها، والقادر على كلّ شيء، وهو الذي ينفع ويضر، ويعطي ويمنع. فالواجب تخصيصه بالخوف، وألا يخاف هذا الخوف - السرّ - إلّا من الله في كلّ الأمور.

وخوف السرّ يختص به سبحانه، وهو كون الإنسان يخاف من أجل قدرة خاصّة سرّية، ليست حسب الحس، ولذلك يعتقد عبّاد القبور أنّ بعض النّاس له القدرة على التّصرف في الكون مع الله جلّ وعلا، ويعتقدون ذلك أيضاً في الأصنام، والجنّ وغيرها، وهذا هو الشّرك الأكبر، ويعتقد فيهم أيضاً أنّ لهم القدرة على العطاء، والمنع، وزیغ القلوب، وموت النفوس دون أسباب حسّية.

الثاني: خوف الأسباب الحسّية، كما قال تعالى في قصة أُنحَد، لما قيل للنّبيّ ﷺ: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، وسيرجعون إليكم: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

فالشَّيْطَانُ: يُخَوِّفُ النَّاسَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَيُعْظِمُهُمْ فِي صُدُورِ النَّاسِ حَتَّى يَخَافُوهُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ بل اعتمدوا عليَّ، وأعدوا العُدَّةَ، ولا تُبَالُوا بِهِمْ، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾ [الأنفال: 60]، وهذا الخوف الحسي لا بأس به؛ لكن الخوف القلبي خوف السيِّر، هذا هو المنهي عنه. أمَّا الخوف الحسيُّ: مثل أن يخاف اللِّصَّ، أو السَّارِقَ، أو العدوَّ، فَيَعِدُّ العُدَّةَ مِنَ السِّلَاحِ اللَّازِمِ، كُلُّ هَذَا لَا بُدَّ مِنْهُ، لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾ [النِّسَاء: 71]، وقال سبحانه في قصة موسى لما خرج من مصر خائفًا من فرعون وقومه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ...﴾ [الْقَصَص: 21].

فإنَّ هَذَا الْخَوْفَ خَوْفٌ حَسِّيٌّ لَا بَأْسَ بِهِ؛ لَكِنْ لَا يَجُوزُ خَوْفُ الْعَدُوِّ خَوْفًا يَمْنَعُ مِنْ جِهَادِهِ، وَنَصْرِ الْحَقِّ، وَإِنَّمَا يَحْمِلُهُ هَذَا الْخَوْفُ عَلَى الْإِعْدَادِ لِلْعَدُوِّ، وَأَخَذِ الْحَذَرِ. الثَّالِثُ: الْخَوْفُ الطَّبِيعِيُّ، الَّذِي جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَهَذَا لَا حَرَجَ فِيهِ، مِثْلُ خَوْفِ الْإِنْسَانِ الْحَيَّةَ، وَالْعَقْرَبَ، وَالسَّعِيعَ، فَيَتَبَاعَدُ عَنْهَا، وَيَقْتُلُهَا، وَيَتَبَاعَدُ عَنْ مِظَنَّةِ السَّبَاعِ حَتَّى لَا يَتَأَذَى بِهَا.

هَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَاللَّهُ جَبَلَ النَّاسَ عَلَى الْخَوْفِ مِمَّا يُؤْذِي حَتَّى يَتَحَرَّرَ مِنْهُ، يَخَافُ الْبَرْدَ، فَيَلْبِسُ الثِّيَابَ الْعَلِيظَةَ، وَيَخَافُ مِنَ الْجُوعِ فَيَأْكُلُ، وَيَخَافُ الْعَطَشَ فَيَشْرَبُ، هَذِهِ أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ لَا بَأْسَ بِهَا.

وَهَكَذَا الرِّجَاءُ عِبَادَةً لِلَّهِ، فَيَرْجُو اللَّهَ، وَيُحْسِنُ بِهِ الظَّنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿... فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهَ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

فالرغبة إليه، ورجاء ما عنده، عبادة له سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خُشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

فالرَّغَبُ: الرَّجَاءُ، والرَّهَبُ: الخوفُ، وكلاهما عبادة، وعلى العبد أن يُحسِنَ ظَنَّهُ برَبِّهِ، ويأخذ بالأسبابِ الشرعيَّةِ، وإنَّ الظَّنَّ الحسنَ مع الأخذِ بالأسبابِ، يَعُودُ على العبدِ بالخير، والرَّحمة، ودخولِ الجنَّةِ، ومغفرةِ الذُّنُوبِ.

وهكذا التَّوَكُّلُ عبادة، وهو التفويضُ إلى الله، والاعتمادُ عليه في كلِّ الأمور، مع الأخذِ بالأسبابِ، فَتَعْتَمِدُ على الله في السَّلامَةِ من الشرِّ، والعافيةِ من الفتنِ، وحصولِ الرِّزْقِ، وفي دخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ من النَّارِ، مع الأخذِ بالأسبابِ المشروعةِ، قال تعالى: ﴿... وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]، وقال تعالى: ﴿... وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾ [الطلاق: 3] يعني: كافيه.

وهكذا الرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ والخشوع كلُّ هذه عباداتٌ، قال تعالى عن الأنبياءِ والصَّالحينَ: ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خُشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]، يعني: خائفينَ يَخْشَوْنَ اللهَ، وَيَخْشَعُونَ لعظمته؛ أي: يَدُلُّونَ.

[وهكذا الخشية عبادة، قال تعالى: ﴿... فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي...﴾ [البقرة: 150] فيخشى الله ويرجوه، فيضم مع الخشية الرجاء، ويضم إليهما العمل].

وهكذا الإنابة عبادة، قال تعالى: ﴿أَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ...﴾ [الزمر: 54] والإنابة معناها: الرجوعُ إلى الله، والتَّوْبَةُ إليه، والاستقامةُ على طاعته، فهذه عبادةٌ لله، يَجِبُ على النَّاسِ

أَنْ يُنِيبُوا إِلَى اللَّهِ، وَيَرْجِعُوا إِلَيْهِ، وَيَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَيَسْتَغْفِرُوا عَلَى طَاعَتِهِ.

وهكذا الاستعانةُ عبادَةً، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَةُ: 5]، وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» فيستعينُ العبدُ بالله، فتقول: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى طَاعَتِكَ، اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، إِلَى غَيْرِ هَذَا، تَسْتَعِينُ بِاللَّهِ فِي كُلِّ الْمُهْمَّاتِ.

وهكذا الاستعاذةُ عبادَةً، أَنْ تَسْتَعِذَ بِاللَّهِ مِنَ الشُّرُورِ، وَتَلْجَأَ إِلَيْهِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الْفَلَقُ: 1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [النَّاسِ: 1] فالاستعاذةُ بالله، مِنَ الشَّيْطَانِ، وَمِنْ كُلِّ مُؤَذٍ، وَمِنْ كُلِّ عَدُوٍّ، أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ...﴾ [الأعراف: 200].

وهكذا الاستغاثةُ عبادَةً، أَنْ تَسْتَغِيثَ بِاللَّهِ فِي الشَّدَائِدِ مِنَ عَدُوٍّ، أَوْ تَطْلِبَهُ أَنْزَالَ الْغِيثِ الْمُبَارَكِ، أَوْ يَكْشِفَ الضَّرَّ، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ...﴾ [الأنفال: 9].

وهكذا الذَّبْحُ عبادَةً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي...﴾؛ أَي: يَعْنِي: ذَبَحِي ﴿...وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

وفي الحديث: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ»¹ فالذَّبْحُ عبادة، فمن صرفه لغير الله يكون مَلْعُونًا مستحقًا لهذا الذم العظيم، واللَّعْن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله.²

وهكذا النَّذْر عبادة: قال تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنذَرِ...﴾ [الإنسان: 7]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ...﴾ [البقرة: 270]، قال ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ، فَلْيُطِيعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ، فَلَا يَعْصِهِ».³

فالنَّذْر: عبادة وطاعة لله، إذا فعله الإنسان لزمه الوفاء؛ لقول الرسول ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ» فإذا نَذَرَ عبادة من صلاة، أو صوم، أو صدقة، أو غيرها لزمه الوفاء لما تقدّم، والنَّذْر مكروه؛ لأنّ فيه التزامًا، ومشقة؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن النَّذْر وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ».⁴

الأصل الثاني: معرفة العبد دينه

قال المؤلف:

«الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، وهو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخُلُوص مِنْ

¹ سبق تخريجه في (ص 40).

² وإن كان اللّعن من النَّاس هو السَّبُّ والدُّعاء ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير، مادة: [لعن] باب اللام مع العين.

³ أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها البخاري، برقم (6696).

⁴ أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وتمامه: «وإنما يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ» البخاري، برقم (6608)، ومسلم، برقم (1639)، واللفظ له.

الشِّرْكَ وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ: «الإِسْلَامُ» و«الإِيْمَانُ» و«الإِحْسَانُ»، وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ:¹

فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ.²

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 18].

وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ: «لَا إِلَهَ» نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، «إِلَّا اللَّهُ» مُثَبِّتًا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ أَلَيْسَ لَهُ شَرِيكَ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ 26 إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ 27 وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)﴾ [الزَّخْرَفُ: 26-28].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 64].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128)﴾ [التَّوْبَةِ: 128].

1 وفي بعض «نسخ ثلاثة الأصول»: [وَالْبِرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ].

2 وفي بعض «نسخ ثلاثة الأصول»: [المرتبة الأولى: الإسلام].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ 5﴾ [الْبَيِّنَةُ: 5].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 183﴾ [البقرة: 183].

وَدَلِيلُ الْحَجِّ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ 97﴾ [آل عمران: 97].

قال الشارح:

هذا هو الأصل الثاني: وهو معرفة دين الإسلام، وهو ثلاث مراتب بينها الرسول ﷺ، فأولها الإسلام: وهو الإخلاص لله وحده؛ يعني: الاستسلام لله بالعبادة، وتخصيصه بها دون كل ما سواه، والبراءة من الشرك وأهله.

فإذا فعل ذلك فقد أسلم؛ يعني: انقاد وذلّ، وخضع لله ووحدّه بالعبادة دون كل ما سواه، وتبرّأ من الشرك وأهله، قال تعالى: ﴿...فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...﴾ [البقرة: 256]، والكفر بالطَّاغُوتِ معناه: البراءة من الشرك وأهله، وإنكار ذلك، واعتقادُ بطلانه.

وهناك مرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان، وكلها داخلة في دين الإسلام؛ الدين الذي شرعه الله لعباده، وأرسل به الرسل جميعاً ومرتبة الإسلام تشمل الأعمال الظاهرة. وأركانه خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ في قوله: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»¹.

فأول أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وبها يدخل العبد في الإسلام، فيشهد أن لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله، وهي نفى وإثبات، ف«لا إله»: نفى، و«إلا الله»: إثبات، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ 5﴾ [الْفَاتِحَة: 5]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ...﴾ [الْبَيْتَة: 5]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ...﴾ [الْحَجَّ: 62].

أما قولها بدون العمل بها، فلا تنفعه كأن يقول: لا إله إلا الله، ولا يخص الله بالعبادة، فإن شهادته لا تنفعه، كالمنافقين، فإنهم يقولونها، ولا يعتقدونها، فهم في الدرك الأسفل من النار، فالذي يقول: لا إله إلا الله، ويعبد القبور والأصنام لا تنفعه؛ بل هي باطلة.

¹ أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما البخاري، برقم (8) ومسلم، برقم (16).

وَأَمَّا الشَّهَادَةُ الثَّانِيَّةُ: وَهِيَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ [النُّبَا: 128] يَعْنِي: مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَعْرِفُونَهُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَنفُسِكُمْ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَفِ قَبَائِلِكُمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ: ﴿...عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ أَي: يَشْقُ عَلَيْهِ مَا يَشْقُ عَلَيْكُمْ: ﴿...حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ...﴾ يَعْنِي: عَلَى هَدَايَتِكُمْ، وَإِنْقَادِكُمْ مِنَ النَّارِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ...﴾ [الْفَتْح: 29].

وَمَعْنَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنْ يُطِيعَهُ الْعَبْدُ فِيمَا أَمَرَ، وَأَنْ يُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَأَنْ يَجْتَنِبَ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَلَّا يَعْبُدَ اللَّهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ:
الْأَوَّلُ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَغَيْرِهَا.
الثَّانِي: تَصَدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ عَنِ الْآخِرَةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

الثَّلَاثُ: اجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، كَالزَّنَا، وَالرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ.
الرَّابِعُ: أَنْ لَا يُعْبَدَ اللَّهَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، فَلَا يَبْتَدِعُ فِي الدِّينِ مِمَّا لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»¹ وَفِي رَوَايَةٍ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»² أَي: هُوَ مُرَدُّودٌ.

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّینَ حُنَفَاءَ...﴾ هَذَا تَفْسِيرُ

¹ أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مُسْلِمٌ، بِرَقْمٍ (1718).

² أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْبُخَارِيُّ، بِرَقْمٍ (2697) وَمُسْلِمٌ، بِرَقْمٍ (1718).

التَّوْحِيد: ﴿...وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: 5]، وهذا دليل الصلوة والزكاة، وكذا قوله تعالى: ﴿...فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ...﴾ [التوبة: 11]، وقال تعالى: ﴿... فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ...﴾ [البينة: 5].

ودليل الصيام: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ [البقرة: 183]، الآيات إلى قوله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ...﴾ [البقرة: 185]، أي: أن الصيام واجب عليكم كل عام، في شهر رمضان.

ودليل الحج: قوله تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ [آل عمران: 97]، وهو مرة في العمر؛ لقول النبي ﷺ: «.. الْحَجُّ مَرَّةً، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ»¹ -فهذه هي أركان الإسلام الخمس-.

قال المؤلف:

«المرتبة الثانية: الإيمان: وَهُوَ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَدَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»².

1 طرف من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سؤال الأقرع بن حابس للنبي صلى الله عليه وسلم أخرجه أبو داود، برقم (1721) والنسائي، برقم (2620) وابن ماجه، برقم (2886) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (2/321 برقم 3155).

2 الإيمان في اللغة: التصديق، وشرعاً: هو قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان. ينظر: «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لسماحة الشيخ ابن باز (5/35).

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ، وَشَرِّهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ
السِّتَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ...﴾ [البقرة: 177].

وَدَلِيلُ الْقَدَرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (49)
[القمر: 49].

المرتبة الثالثة: الإحسان: رُكْنٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ
تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.¹

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ
128﴾ [النحل: 128]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ
217 الَّذِي يَرْلَكَ حِينَ تَقُومُ 218 وَتَقْلَبُ فِي السُّجُودِ 219 إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ 220﴾ [الشعراء: 217-220]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ...﴾ [يونس: 61]».

«وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ حَدِيثُ جَبْرِيلَ الْمَشْهُورُ، عَنْ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ
الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّقَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى
فَخْدَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

1 أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري، برقم (9) مختصراً،
ومسلم، برقم (35) واللفظ له ولفظ البخاري: «الإيمان بضغ وسئون شعبه»
وعند مسلم «الإيمان بضغ وسبعون أو بضغ وسئون شعبه».

عَلَيْهِ السَّلَامُ: 1 «الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ، الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، فَقَالَ: «يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ».²

قال الشارح:

الإيمان: هو ما يتعلّق بالقلوب من التصديق باللّهِ، وأنّه ربّ العالمين، وأنّه هو المُستحقّ للعبادة، والتّصديق بالملائكة، وبالكتب، وبالرّسل، وبالبعث بعد الموت، والجنّة والنّار، والقدر خيره وشرّه.

1 وهذا الدليل من السنّة على مراتب الدّين الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان وأمارات الساعة وعلاماتها لم يُلحق عليه سماحته في هذا الشرح.

2 أخرجه مسلم في «صحيحه» أول حديث في كتاب الإيمان، برقم (8).

كُلُّ هَذَا يَتَعَلَّقُ بِالْقُلُوبِ، فَهُوَ أَصْلٌ مِنَ الْأُصُولِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا، فَلَا إِسْلَامَ إِلَّا بِإِيمَانٍ، وَلَا إِيمَانَ إِلَّا بِإِسْلَامٍ، فَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا، وَهَذَا، لَا بُدَّ مِنْ إِسْلَامِ الْجَوَارِحِ، وَلَا بُدَّ مِنْ إِسْلَامِ الْقُلُوبِ، وَإِيمَانِهَا؛ وَلِهَذَا جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَهَكَذَا الرَّسُولُ ﷺ ذَكَرَهُمَا جَمِيعًا.

فَالْإِسْلَامُ: هُوَ الْإِنْقِيَادُ الظَّاهِرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ، وَالْإِيمَانُ يَشْمَلُ الْأَعْمَالَ الْبَاطِنَةَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْقُلُوبِ وَتَصْدِيقُهَا، وَيُطْلَقُ الْإِسْلَامُ عَلَى الْإِيمَانِ، وَيُطْلَقُ الْإِيمَانُ عَلَى الْإِسْلَامِ.

فَإِذَا قِيلَ: الْإِيمَانُ: عَمَّ الْجَمِيعَ، وَإِذَا قِيلَ: الْإِسْلَامُ: عَمَّ الْجَمِيعَ أَيْضًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 19] فَيَعُمُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ.

وَهَكَذَا الْإِيمَانُ إِذَا أُطْلِقَ عَمَّ الْجَمِيعَ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الْإِيمَانُ: بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»¹.

فَالْإِيمَانُ هُنَا يَعُمُّ الْجَمِيعَ، فَيَعُمُّ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ، وَيَعُمُّ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، كَمَا يَعُمُّ الْبَاطِنَةَ، كَمَا أَنَّهُ يَشْمَلُ الْإِحْسَانَ.

أَمَّا الْإِحْسَانُ: فَهُوَ إِكْمَالُ الْعِبَادَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَهُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ، فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْإِسْتِحْضَارِ، فَقَدْ أَدْرَكَ مَرْتَبَةَ الْإِحْسَانِ، وَاجْتَمَعَ لَهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النَّحْلُ: 128]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿...إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الْأَعْرَافُ: 56] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

الأصل الثالث: معرفة العبد نبيه ﷺ

قال المؤلف:

«الْأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ فُرَيْشٍ، وَفُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثُ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلَاثُ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، نَبِيًّا بـ (أَقْرَأَ) [العلق: 1] وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّتِّرُ) [المدتّر: 1] وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنِّدَارَةِ عَنِ الشِّرْكَ، وَيَدْعُوا إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّتِّرُ 1 قُمْ فَأَنْذِرْ 2 وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ 3 وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ 4 وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ 5 وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ 6 وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ 7) [المدتّر: 1-7].

ومعنى (قُمْ فَأَنْذِرْ 2): يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكَ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ 3) أَي: عَظِّمُهُ بِالتَّوْحِيدِ (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ 4) أَي: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ مِنَ الشِّرْكَ (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ 5) الرُّجْزُ: الْأَصْنَامُ، وَهَجَرُهَا تَرْكُهَا وَأَهْلُهَا وَالْبِرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ.¹

1 أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه البخاري، برقم (349) ومسلم، برقم (163).

«وَالْهَجْرَةُ: الْإِنْتِقَالُ مِنْ بِلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بِلَدِ الْإِسْلَامِ، وَالْهَجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بِلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بِلَدِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ»¹

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا 97 إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا 98 فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا 99﴾ [النساء: 97-99]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ 56﴾ [العنكبوت: 56].

قال البغوي رحمه الله:² سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان.³

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهَجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ، قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ النَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ النَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»⁴.

قال الشارح:

1 هذا تعريف الهجرة شرعاً، وهي في اللغة: الترك والخروج من أرض إلى أخرى. ينظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي، مادة: [هجر] باب الراء فصل الهاء، (460/2).

2 هو: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الإمام الفقيه المجتهد محي السنة، صاحب «معالم التنزيل» في التفسير، و«شرح السنة» و«التهذيب» والمصباح في الحديث، وغير ذلك، من التصانيف النافعة، مات بمرور الروز في شوال سنة [516 هـ] عن ثمانين سنة. ينظر: ترجمته في «طبقات الحفاظ» للسيوطي (456/1، 457) ترجمة رقم (1027).

3 ينظر: «معالم التنزيل» للبغوي (273/2).

4 أخرجه من حديث معاوية رضي الله عنه أبو داود، برقم (2479).

هذا هو الأصل الثالث: وهو معرفة نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ، فعلى الإنسان أن يَعْرِفَ نَبِيَّهَ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَبَلَّغَهُ الرِّسَالَةَ، وَبَيَّنَّ لَهُ الشَّرَائِعَ الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهَا، وَأَوْضَحَ لَهُ الْعِبَادَةَ الَّتِي خَلَقْنَا اللَّهُ لَهَا.

هذا النَّبِيُّ هو: مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَرَسُولُ اللَّهِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ [الأعراف: 158]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [سبأ: 28].

فاسمُهُ مُحَمَّدٌ، واسمُهُ أَحْمَدُ، واسمُهُ الْحَاشِرُ، والمَاحِي، وَالْمُفَقِّي؛ لِأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ نَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمُلْحَمَةِ. هَذِهِ كُلُّهَا أَسْمَاؤُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لَكِنْ أَشْهُرُهَا وَأَفْضَلُهَا وَأَعْظَمُهَا مُحَمَّدٌ، الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ، وَجَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، قَالَ تَعَالَى: ³²¹﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ...﴾ [الفتح: 29].⁴

1 أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه الإمام أحمد (4/404 برقم 19637).

2 أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مسلم، برقم (2355).

3 أخرجه من حديث جبير بن مطعم وفيهما اسم خامس وهو «العاقب» البخاري، برقم (3532) ومسلم، برقم (2354).

4 ورد اسم محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن في أربعة مواضع: الأول: في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ [آل عمران: 144]. الثاني: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾ [الأحزاب: 40]. الثالث: قوله تعالى: ﴿...وَعَامِنُوا بِمَا نُنَزِّل عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ...﴾ [محمد: 2]. الرابع: في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ...﴾ [الفتح: 29].

وَهَكَذَا أَحْمَدُ، كَمَا بَشَّرَ بِهِ عِيسَى: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...) [الصف: 6] فهو مُحَمَّدٌ، وأبوه اسمُه عَبْدُ اللَّهِ، وجدُه اسمُه عَبْدُ المطلبِ، وعبدُ المطلبِ لَقَبٌ وإِلَّا فاسمه شبيبة، وأبو جدِّه اسمُه هاشمٌ، وهو سَيِّدٌ من ساداتِ قريشٍ، كَمَا أَنَّ عَبْدَ المطلبِ كَذَلِكَ.

وهاشمٌ من قريشٍ، وقريشٌ قبيلةٌ عظيمةٌ، وهي أَفْضَلُ العربِ، والنَّبِيُّ ﷺ من خَاصَّتِهِمْ، من بني هاشمٍ، وبنو هاشمٍ خَاصَّةُ قريشٍ، وهم أَفْضَلُ قريشٍ: واسمُه فَهْرُ بْنُ مَالِكٍ.

وقيل: قريشٌ هو النَّضْرُ بْنُ كِنَانَةَ جَدُّ فَهْرُ بْنُ مَالِكٍ، وقريشٌ من العربِ الْمُسْتَعْرَبَةِ الَّتِي اسْتَعْرَبَ لِسَانُهَا، فَصَارَ لَهَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ وَاضِحٌ، فَهِيَ أَكْثَرُ عَرُوبَةٍ مِنْ قَحْطَانَ؛ ولهذا يُقَالُ لَهُم: العربُ العارِبةُ، والعربُ الْمُسْتَعْرَبَةُ، وَهُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ.

وهذا النَّبِيُّ الْعَظِيمُ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ نُبِّئَ بِـ (أَقْرَأَ) [العلق: 1] فَأُولُ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ: (أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ 1) [العلق: 1] وَصَارَ بِهَا نَبِيًّا، وَقَدْ أَتَاهُ جِبْرِيلُ، وَهُوَ فِي الْغَارِ، غَارِ حِرَاءٍ، فَاقْرَأَهُ هَذِهِ السُّورَةَ.¹

ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ يَسِيرَةٍ جَاءَهُ بِالْمَدَنِيِّ، فَصَارَ رَسُولًا بِقَوْلِهِ: 2 (يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ 1 فَمَنْ أَنْذَرْتُ 2) [المدن: 1-2] وَالْمَدَنِيُّ: الْمُتَنَحِّفُ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ مَا جَاءَهُ الْوَحْيُ، اسْتَدَّتْ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وَقَالَ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي..

1 فقد ورد في الصَّحِيحَيْنِ عن عائشة رضي الله عنها في قصة كيفية بدء الوحي عليه صلى الله عليه وسلم أخرجه البخاري، برقم (3) ومسلم، برقم (160).

2 أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه البخاري، برقم (4) ومسلم، برقم (161).

دَثِرُونِي، دَثِرُونِي.. مِنْ شِدَّةِ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْخَوْفِ لَمَّا ضَعَطَ عَلَيْهِ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَرَاتٍ.

ثُمَّ قَالَ: اقْرَأْ، تَمْهِيدًا لِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَعَظْمَتِهَا، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ 1 قُمْ فَأَنْذِرْ 2﴾ [المدثر: 1-2] أَيُّ: قُمْ فَأَنْذِرِ النَّاسَ، فَصَارَ رَسُولًا بِأَمْرِهِ بِالْإِذَارَةِ: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ 3﴾ أَيُّ: عَظِّمُهُ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ 4﴾ أَيُّ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ مِنَ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّ تَطْهِيرَ الْمَلَابِسِ غَيْرُ مُرَادِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ لَمْ تُفْرَضْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَالْمُرَادُ هُنَا الْأَعْمَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿...وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ...﴾ [الأعراف: 26] فَالْعَمَلُ يُسَمَّى لِبَاسًا.

الرُّجْزُ: الْأَصْنَامُ، وَهَجَرُهَا تَرْكُهَا، وَالْبِرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ عَشْرَ سِنِينَ، يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَيُحَذِّرُ مِنَ الشِّرْكِ، وَيَأْمُرُ بِخَلْعِ عِبَادَةِ مَا سِوَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُهُمْ أَنْ يَخْصُوا اللَّهَ بِالْعِبَادَةِ فِي دُعَائِهِمْ وَنَذْرِهِمْ وَذَبَائِحِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ بَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ مَعَ جَبْرَائِيلَ، وَفُتِحَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ إِلَى مَوْضِعٍ رَفِيعٍ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، حَتَّى سَمِعَ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ، ثُمَّ تَادَاهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا وَكَلَّمَهُ وَفَرَضَ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، فَرَضَهَا خَمْسِينَ صَلَاةً، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَطْلُبُهَا التَّخْفِيفَ حَتَّى جَعَلَهَا اللَّهُ خَمْسًا¹.

1 العروج هو الصُّعُود إلى الأعلى، عرج إذا صعد إلى العلو، بدرج وعجوه ومنه المعارج، المصاعد أو الفواصل التي تصعد بها الملائكة إلى السماء. ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير، مادة: [عرج] باب العين فصل الرء (ص 602).

فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: هِيَ خَمْسٌ فِي الْعَدَدِ، وَهِيَ خَمْسُونَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ، فَمَنْ حَافِظٌ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَأَدَّاهَا، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ خَمْسِينَ، فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا.¹

فَنَزَلَ بِذَلِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَاسْتَقَرَّتِ الصَّلَاةُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ: الظُّهْرُ، وَالْعَصْرُ، وَالْمَغْرِبُ، وَالْعِشَاءُ، وَالْفَجْرُ، وَصَلَّاهَا فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجَرَ. ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَمَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ أذى قُرَيْشٍ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ، فَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالْهَجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ؛ لِأَجْلِ أذى وَظُلْمِ قُرَيْشٍ، إِلَى الْمَدِينَةِ إِلَى الْأَنْصَارِ، وَقَدْ بَايَعُوهُ فِي مُوسِمِ الْحَجِّ عَلَى أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَيْهِمْ وَيَنْصُرُوهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.²

فَلَمَّا تَمَّتِ الْبَيْعَةُ، وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالْهَجْرَةِ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَدْ هَاجَرَ قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَمَكثُوا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ مُدَّةً، ثُمَّ هَاجَرَ بِقَبَائِلِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ جَاءَ الَّذِينَ فِي الْحَبَشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاسْتَقَرَّ الْجَمِيعُ فِي الْمَدِينَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ³

قال المؤلف:

1 أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري، برقم (7517) ومسلم، برقم (162).

2 ينظر: سيرة ابن هشام (1/447)، والسيرة النبوية لابن كثير (2/192، 209، 215، 289)، والبداية والنهاية لابن كثير (3/192، 203)، ومختصر سيرة الرسول لمحمد التميمي (ص ١٧٤). أخرجه من حديث جابر رضي الله عنهما الإمام أحمد (3/322، 323). قال ابن كثير: هذا إسناد جيد على شرط مسلم، ولم يخرجه «البداية والنهاية» (4/399).

3 ولمعرفة المزيد من أحكام الهجرة. ينظر: «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لسماحته (9/402، 299، 44، و18/119، 328/27).

«فلما استقر في المدينة أمر ببقية شرائع الإسلام، مثل الزكاة، والصَّوم، والحج، والأذان، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام. أخذ على هذا عشر سنين، وبعدها توفي، صلوات الله وسلامه عليه، ودينه باقٍ، وهذا دينه لا خير إلَّا دل الأمة عليه، ولا شر إلَّا حذرهما منه، والخير الَّذي دلها عليه التَّوحيد، وجميع ما يُحبّه الله ويرضاه، والشرّ الَّذي حذرهما منه الشِّرك، وجميع ما يكرهه الله ويأباه.

بعثه الله إلى النَّاس كافة، وافترض طاعته على جميع الثقلين: الجن والإنس، والدَّلِيلُ: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ [الأعراف: 158].

وكمل الله به الدِّين، والدَّلِيلُ قوله تعالى: ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة: 3].

والدَّلِيلُ على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ 30 ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ 31﴾ [الزمر: 30-31]. والنَّاس إذا ماتوا يبعثون، والدَّلِيلُ قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى 55﴾ [طه: 55]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا 17 ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا 18﴾ [نوح: 17-18].

وبعدَ البعثِ مُحاسبون ومجزَّيُونَ بأعمالهم، والدَّلِيلُ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْأَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى 31﴾ [النجم: 31].

ومن كَذَّبَ بِالْبَيْتِ كُفْرًا، والدَّلِيلُ قوله تعالى: ﴿رَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ 7﴾ [التَّغَابُن: 7]..

قال الشارح:

فلما استقر في المدينة بعد الهجرة أمره الله ببقية شرائع الإسلام من الزَّكَاةِ، وصيام رمضان، وحج البيت، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنَّ المدينة صارت دار إسلام، وهي العاصمة الأولى للمسلمين، فلهذا أمرُوا بهذه الأمور؛ لأنَّهم يتمكنون حينئذ من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا من رحمة الله عز وجل، أن أَجَلَ هذه الواجبات إلى أن هاجر إلى المدينة.

وكان أصل الزَّكَاةِ مشروعًا في مكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿...وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ...﴾ [الأنعام: 141].

ولكن أنصبأوها ومصارفها وتفاصيل أحكامها، كُلُّ هذا صار في المدينة، وهكذا صيام رمضان شُرِعَ في السَّنة الثَّانية من الهجرة.

وهكذا الحجُ شُرِعَ في السَّنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة، وأنزل الله فيه: ﴿...وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ [آل عمران: 97] في سورة آل عمران، وهي مدنية.

وهكذا الجهاد أمر به في المدينة، وكان في أوَّل الأمر يجاهد من جاهد، ويكف عن كُفِّ عنه، ثُمَّ أُمِرَ بأن يبدأهم بالقتال، وأن يجاهد الكُفَّار، وإن لم يبدأوا، فيدعوهم إلى الله ويرشدهم

إليه، فإن أجابوا، وإلا قاتلهم حتى يستجيبوا للحقّ إلا أهل الكتاب، فإنّه يقبل منهم الجزية.

وسنّ الله في المجوس سنّة أهل الكتاب، إمّا إسلام، وإمّا جزية، وأمّا بقية الكفرة إمّا الإسلام، وإمّا السيف مع القدرة.

وبعدما أكمل الله به الدّين، وأتم به النّعمة كما قال الله تعالى: ﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة: 3]، توفاه الله إليه بعد عشر سنين من الهجرة، بعدما بلّغ البلاغ المبين، وأكمل الله به الدّين، وأتم به النّعمة، وقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ 30 ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ 31﴾ [الزمر: 30-31].

والنّاس إذا ماثوا يُبعثون، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا 17 ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا 18﴾ [نوح: 17-18]، وقال سبحانه: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ 7﴾ [التغابن: 7]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ 31﴾ [النجم: 31].

فهم مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ يوم القيامة، ويعطون كتبهم بأيمانهم وشمائلهم، فالسّعيد يُعطى كتابه بيمينه، والشقي يُعطى كتابه بشماله.

السّعيد: يرجح ميزانه، والكافر: يخف ميزانه، وأصحاب المعاصي على خطر، فقد يرجح ميزانهم بالتوبة، أو بعفو الله سبحانه، أو بالحسنات، وقد يخف ميزانهم، فيكونون من أهل

النَّارَ، فَيَعَذِّبُونَ فِيهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ مَوْتِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ.

فالواجب على كل مُكَلَّف أن يحذر سَيِّئَاتِ الْعَمَلِ، وأن يلزم التَّوْبَةَ وَالِاسْتِقَامَةَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يَهْجُمُ عَلَيْهِ الْأَجَلُ، فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ أَنْ يَأْخُذَ الْمُسْلِمُ بِالْعَزِيمَةِ، وَيَجَاهِدَ نَفْسَهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى الْحَقِّ، وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، حَتَّى إِذَا هَجَمَ عَلَيْهِ الْأَجَلُ إِذَا هُوَ عَلَى خَيْرِ عَمَلٍ، وَعَلَى اسْتِقَامَةٍ، فَيَفُوزَ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

بيان ما بعث الله به الرُّسُلَ عليهم السَّلَام

قال المؤلف:

«وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...﴾ [النِّسَاء: 165].

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنْ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾ [النِّسَاء: 163].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ بِأَمْرِهِمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَبِنَهَايِهِمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...﴾ [النحل: 36]، وَافْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفَرِ بِالطَّاغُوتِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ.

قال ابن القيم رحمه الله: ¹ «معنى الطَّاعُوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، والطَّوَاعِيت كثيرون، ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عُبدَ وهو راضٍ، ومن دعا النَّاسَ إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والدَّلِيلُ قوله تعالى: ² ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (256) [البقرة: 256].

وهذا هو معنى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وفي الحديث: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ³ والله أعلم».

قال الشارح:

وَالرَّسُولُ ﷺ مُرْسَلٌ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِلَى الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾

¹ هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الدمشقي الحنبلي أبو عبد الله شمس الدين المشهور بابن قيم الجوزية، ولد في 7 صفر سنة [691هـ] له مؤلفات كثيرة مفيدة في الأصول والفروع، في العقائد والأحكام، توفي رحمه الله في دمشق في 13 رجب سنة [751هـ]. ينظر: «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (2/ 447 - 452)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (14/ 235، 234)، و«شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي (6/ 168 - 170).

² ينظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (1/ 40).

³ جزء من حديث معاذ رضي الله عنه أخرجه الترمذي، برقم (2616) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» النسائي، برقم (11394)، وابن ماجه، (3973) والحديث صحيح، وقد سئل سماحة الشيخ عنه، فقال: «الحديث صحيح».

[الأعراف: 158]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [سبأ: 28]، وهو خاتم الأنبياء ليس بعده نبي. وهكذا الرُّسل جميعًا أرسلوا إلى أممهم مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، من أولهم إلى آخرهم، فأولهم نُوحٌ، بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى لَمَّا وَقَعَ الشِّرْكُ فِي قَوْمِهِ.

وقبله آدم فَإِنَّهُ نَبِيُّ رَسُولٌ مُّكَلَّفٌ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ؛ لِيَعْبُدُوا اللهَ بِالشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا أَبُوهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، واستمروا على الإسلام والاستقامة، حَتَّى وَقَعَ الشِّرْكُ فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا وَقَعَ الشِّرْكُ فِي قَوْمِ نُوحٍ، أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ نُفُوحِ الشِّرْكِ.

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَادُ أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ هُودًا، ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ صَالِحًا إِلَى قَوْمِهِ ثَمُودَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِبْرَاهِيمَ، وَلُوطًا، وَشُعَيْبًا، فِي زَمَانٍ مُّتْقَارٍ.

ثُمَّ جَاءَتْ الرُّسُلُ بَعْدَ ذَلِكَ تَنْتَرِي، فَفِيهِمْ مُوسَى وَهَارُونُ وَعِيسَى وَأَيُّوبُ وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ، ثُمَّ خْتِمُوا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...﴾ [الأحزاب: 40]، وَهُوَ خَاتَمُهُمْ وَآخِرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...﴾ [النساء: 165]، فَقَوْلُهُ: ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ يَعْنِي: يُبَشِّرُونَ مِنْ أَطَاعِهِم بِالْجَنَّةِ، وَ﴿مُنْذِرِينَ﴾ يَعْنِي: يُنْذِرُونَ النَّاسَ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَمِنَ النَّارِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، إِذَا خَالَفُوا أَمْرَ اللهِ.

وهكذا مُحَمَّدٌ ﷺ أَرْسَلَهُ اللَّهُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، كما قال تعالى:
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا 45 وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
 وَسِرَاجًا مُنِيرًا 46﴾ [الأحزاب: 45-46].

فالواجب على جميع الأمم اتِّبَاعُ رُسُلِهِمْ، فَكُلُّ أُمَّةٍ يَجِبُ عَلَيْهَا
 أَنْ تَتَّبِعَ رَسُولَهَا، وَتَتَّقَدْ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْهُدَى، وَقَدْ وَعَدَهَا اللَّهُ
 عَلَى ذَلِكَ السَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَكْثَرُ الْخَلْقِ قَدْ عَصَوْا
 رُسُلَهُمْ، وَخَالَفُوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ
 وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ 103﴾ [يوسف: 103]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ
 نُطِيعُ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [الأنعام:
 116]، وقال تعالى: ﴿...وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: 13]،
 وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ
 الْمُؤْمِنِينَ 20﴾ [سبأ: 20].

وَكُلُّ رَسُولٍ يَدْعُو أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَطَاعَتِهِ، وَتَرْكِ
 الشِّرْكِ بِهِ وَمَعْصِيَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ
 اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ...﴾ [النحل: 36]، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يَعْنِي:
 أَطِيعُوهُ، وَوَحِّدُوهُ، وَاسْتَقِيمُوا عَلَى دِينِهِ، وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ.
 وَالطَّاغُوتُ: هُوَ كُلُّ مَا عُبدَ مِن دُونِ اللَّهِ، وَهُوَ رَاضٍ، وَكُلُّ
 مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، أَوْ دَعَا إِلَى ذَلِكَ، وَالطَّاغُوتُ: مَاخُوذٌ
 مِنَ الطُّغْيَانِ: وَهُوَ تَجَاوُزُ الْحَدِّ، يُقَالُ: طَغَى الْمَاءُ إِذَا جَاوَزَ
 الْحَدَّ.¹

¹ ينظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (153/8)، و«لسان العرب» لابن منظور (9/15).

وَالطَّاغُوتُ: هُوَ الَّذِي يَتَجَاوَزُ الْحَدَّ، إمَّا بِشَرِّهِ وَكُفْرِهِ، وَإِمَّا بِدَعْوَتِهِ إِلَى ذَلِكَ، وَشَرُّهُمْ وَرَأْسُهُمْ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَهَكَذَا كُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، أَوْ رَضِيَ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا عَوَنَ وَالنَّمْرُودَ، أَوْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، كَالْكُهْنَةِ وَالْعَرَّافِينَ وَالسَّحَرَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي الْإِسْلَامِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مُتَعَمِّدًا، فَهَؤُلَاءِ رُؤُوسُ الطَّوَاغِيتِ، وَكُلُّ مَنْ جَاوَزَ الْحَدَّ، وَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، يُسَمَّى طَّاغُوتًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ [البقرة: 256] فَالرُّشْدُ: الْإِسْلَامُ وَمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَالْغَيُّ: الْكُفْرُ بِاللَّهِ وَالضَّلَالُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿...فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256] فـ ﴿يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ﴾ يَعْنِي: يَتَّبِعُ مِنْهُ، وَيَعْتَقِدُ بَطْلَانَهُ، فَيَتَّبِعُ مِنَ الشِّرْكِ، ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يَعْنِي: يُصَدِّقُ أَنَّ اللَّهَ مَعْبُودُهُ، وَإِلَهُهُ الْحَقُّ، وَيُؤْمِنُ بِالشَّرِيعَةِ، وَبِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَيَقْفَادُ لِذَلِكَ، هَذَا هُوَ الْمُؤْمِنُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ يَعْنِي: اسْتَعَصَمَ ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ وَهِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، يَعْنِي: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الَّتِي لَا انْقِطَاعَ لَهَا؛ بَلْ مَنْ اسْتَمْسَكَ بِهَا صَادِقًا، وَاسْتَقَامَ عَلَيْهَا، وَصَلَّ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْكَرَامَةِ؛ لِأَنَّ لَهَا حَقُوقًا، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ، وَطَاعَتُهُ وَاتِّبَاعُ شَرِيعَتِهِ.

وَمُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَيَجِبُ عَلَى جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ طَاعَتَهُ وَاتِّبَاعُ شَرِيعَتِهِ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ الْخُرُوجُ عَنْهَا،

وَجَمِيعُ الشَّرَائِعِ الْمَاضِيَةِ كُلُّهَا نُسَخَتْ بِشَرِيعَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعًا...﴾ [الأعراف: 158].

وقال قبلها سبحانه: ﴿...فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:
157]، وقال سبحانه: ﴿...وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ
مَوْعِدُهُ...﴾ [هود: 17].

وقال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا
نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ
النَّارِ» أخرجه مسلم في صحيحه.¹

وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ
رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْغُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخُرُوجُ عَلَى
شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ، فَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَرَ
مُخْرَجًا مِنَ الْمِلَّةِ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.²

وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ،
وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».³

«رَأْسُ الْأَمْرِ» يَعْنِي: رَأْسُ الدِّينِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ؛ يَعْنِي:
شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَمَنْ التَزَمَ بِهَا
دَخَلَ الْإِسْلَامَ.

¹ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسلم، برقم (153).

² ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (52/11) و(475/28).

³ سبق تخريجه في (ص 64).

«وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ» وهي الرُّكْنُ الثَّانِي، وهي أعظم الأركان
بعد الشَّهَادَتَيْنِ، ثُمَّ يَلِي ذَلِكَ الزَّكَاةُ، والصِّيَامُ، والحَجُّ، وَبَقِيَّةُ
أَوَامِرِ اللَّهِ.

«وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» لِأَنَّ بِهِ صِيَانَةَ الدِّينِ
وَحِمَايَتَهُ، وَبِهِ دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَإِلْزَامُهُم بِالْحَقِّ.
فَهُوَ ذِرْوَةُ سَنَامِهِ، مِنْ جِهَةِ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ حِمَايَةِ الدِّينِ،
وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَعَلَى جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ، وَيَعْبُدُوهُ دُونَ كُلِّ مَا
سِوَاهُ، وَأَنْ يَكْفُرُوا بِالطَّاغُوتِ، وَيُنْكِرُوا عِبَادَتَهُ، وَيَلْتَزِمُوا
بِالتَّوْحِيدِ، وَاتِّبَاعِ شَرِيعَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَعْظِيمِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

ar485v1.0 - 06/09/2026